إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي

الاسم واللقب: سماح بوعمامة

التخصص: نقد أدبي

جامعة: باتنة -1 -

لا مراء في أن مفاتيح العلوم مصطلحاتها، وأن " المصطلح هو صورة مكثفة للعلاقة العضوية القائمة بين العقل واللغة، وهو في كل علم من العلوم بمثابة النواة المركزية التي يمتد بها مجال الإشعاع المعرفي ويترسخ بها الاستقطاب الفكري"[1].ولا مراء في أن للمصطلح دورا هاما في تحديد أطر المعرفة وضبطها، وأي اضطراب في دلالاته سيفضي حتما إلى الفوضى في بنية أي ضرب من العلوم.

وتحديد المصطلحات أمر هام في مجال البحث العلمي، فبواسطتها يمكن الوصول إلى تحديد دقيق للمفاهيم التي نناقشها. فإذا ما اتسمت المصطلحات بالغموض والاضطراب فإن ذلك سيحول دون تلقي الرسالة العلمية، وسيؤدي إلى تدهور الأسس التي ينبني عليها التواصل العلمي.

والناظر في المسائل النقدية التي تؤلف الإشكال النقدي الراهن يجد أن مسألة المصطلح من أهم القضايا التي أصبحت مثار اهتمام النقاد المعاصرين، ذلك أن المصطلح النقدي يشكل الأساس الذي يقوم عليه الخطاب النقدي، شأنه في ذلك شأن باقي المصطلحات في شتى فروع المعرفة.

ولم تصبح المسألة المصطلحية في النقد الأدبي مسألة إشكالية إلا بسبب اتساع رقعة المعارف التي أدت إلى انبثاق مصطلحات جديدة، ولما كان النقد العربي الحديث مدفوعا لمسايرة ما يستجد من مصطلحات فإن خطاه قد لا تترسخ، ذلك لأن جل المصطلحات الوافدة للحقل النقدي العربي هي مصطلحات أفرزتها مرجعيات معرفية وثقافية تختلف عن الأطر المعرفية والثقافية في الوطن العربي. فحينما " ينقل الحداثيون المصطلح النقدي في عزلة عن خلفيته الفكرية و الفلسفية فإنه يفرغ من دلالته ويفقد القدرة على أن يحدد المعنى. فإذا تم نقله بعوالقه الفلسفية أدى إلى الفوضى والاضطراب، إذ إن القيم المعرفية القادمة من المصطلح تختلف بل تتعارض أحيانا مع القيم التي طورها الفكر العربي الحديث."[2]

فإشكالية المصطلح إذن ليست مصطلحا نقديا مستوردا نتوه في تحديد دلالاته، وإنما هي أزمة فكر وأزمة ثقافة قبل كل شيء.

كذلك اختلاف الاجتهادات في الترجمات تعد أحد أسباب قيام الأزمة المصطلحية في النقد الأدبي العربي، وفوضى الترجمة هذه أدت إلى اضطراب المصطلح النقدي وعدم استقراره عند كثير من النقاد العرب، وكذلك غموض وعدم وضوح المصطلح الذي نجم عن سوء الترجمة حينا وسوء استعماله حينا آخر.

ومن الواضح أن المصطلح النقدي عنده إشكالية أساسية تتمثل في أن " المصطلح الأجنبي قد ينقل بمصطلح عربي مبهم الحد والمفهوم، أو أن المفهوم الغربي الواحد قد ينقل بعشرات المصطلحات العربية المترادفة أمامه، أو أن المصطلح العربي الواحد قد يرد مقابلا لمفهومين غربيين – أو أكثر – في الوقت ذاته، أو أن الناقد العربي الواحد قد يصطنع مصطلحا فيه كثير من التصرف – زيادة أو نقصانا – في مقابله الأجنبي وما إلى ذلك من المظاهر الإشكالية."[3]

إذن فاختلاف المنابع التي ينهل منها النقاد العرب، وكذا تفاوت الدارسين في الوعي بما بين المصطلحات من فروق، كل هذا تظافر فعقد المصطلح النقدي العربي وجعله إلى الالتباس والإغراب والانغلاق أكثر منه إلى التسوية والتماثل.

وهذا الاضطراب المصطلحي يعد "السمة الغالبة في البحوث النقدية العربية، وهو صادر عن التسرع في تبني هذا التيار أو ذاك، وعن غياب رغبة حقيقية في تمثل وفهم جوهر السؤال."[4]

إن المصطلح يكشف عن عقد ثقافي وقرائي، وبالتالي فإن عشوائية تداوله ستقود حتما "وبدرجات متفاوتة إلى حيرة مربكة تشمل التفكير والتعبير والمفهوم والتواصل والتحاور والتناظر، وماذا يبقى من جوهر النقد إن تعرضت جوانبه المختلفة لهذا الاضطراب المقلق."[5]

التحكم في المصطلح هو في النهاية تحكم في المعرفة المراد إيصالها والقدرة على ضبط أنساق المعرفة، والتمكن من إبراز الانسجام القائم بين المنهج والمصطلح، أو على الأقل إبراز العلاقة الموجودة بينهما، ولا شك أن كل إخلال بهذه القدرات من شأنه أن يخل بالقصد المنهجي والمعرفي الذي يرمي إليه مستعمل المصطلح.[6]

يتضح مما سبق أن الواقع النقدي العربي واقع متأزم لا يزال يتخبط في عشوائية المصطلحات المستوردة، وهذه الفوضى التي ارتبطت بالمصطلح النقدي هي حقيقة لابد من النقاد العرب المعاصرين التسليم بها **للخروج من هذه الأزمة**.

فهذا "**أحمد اليابوري**" يرى أن النقد الأدبي العربي تعترضه صعوبات، ذلك أن "أول ما يواجهه النقاد العرب، هو أنهم لم يوحدوا مصطلحاتهم،ولا يعقدون حلقات دراسية لتحديد مفاهيمهم والطرق والوسائل التي يمكن أن يتعاملوا بها لتطبيق هذا المنهج على الأدب العربي."[7]

إن مسألة توحيد المصطلحات بين النقاد ضرورة لابد من السعي لتحقيقها، لهذا نجد "اليابوري" يدعو لعقد مؤتمرات ومجالس أدبية عديدة لطرح هذه القضية حتى نصل إلى دلالات معرفية شبه متفق عليها، لأن " المصطلحات في حاجة ماسة إلى نسق يضبطها ويكشف عن معانيها، لأنها هي التي تجعل الإنسان يميز بين الأشياء ويربط الصلات مع غيره من بني جنسه."[8]

ويؤكد "اليابوري" –كذلك – أن مسألة نقل المفاهيم و النظريات و الأفكار و التيارات الأدبية لا يتم بطريقة آلية ووفق قوانين مضبوطة. فإذا تم نقل مفهوم ما من حقل ثقافي مغاير فإن ذلك المفهوم سيتغير لا محالة. فالعربي بثقافته وارتباطه بمجتمعه وبموروثه، وبذوقه وإحساسه بطبيعة النصوص التي يتعامل معها، فإنه عندما يأخذ مفهوما من الغرب وينقله إلى الحقل الثقافي العربي فإن ذلك المفهوم الأجنبي سيتغير بالتأكيد.[9]

وأما عبد القادر القط فيدعو النقاد إلى توحيد مصطلحاتهم بأنفسهم حتى يسهل التعامل معها. لأن المصطلحات التي لا تشير إلى دلالات معرفية محددة تحدث حتما إرباكا لدى المتلقي، ويظهر ذلك في قوله :" ومفهوم المصطلح من المشكلات العويصة في تفكيرنا اليوم، فهو لا يحمل تعريفا منهجيا محددا نستطيع من خلاله أن نتبين موقفنا منه، ولكل كاتب تعريفه الذي يحمله، والذي لا يوافق الآخر عليه، ولهذا فكل باحث معاصر مطالب بأن يقدم بين يديه مفهومه للمصطلح لكي يكون الآخرون على بينة من أمرهم في تعاملهم معه."[10]

كما يشير القط إلى أن الواقع العلمي لقراء الأدب العربي يكشف عن حيرتهم أمام مناهج متضاربة، بعضهم يغالي في التغريب المندفع، وبعضها يغالي في التراثية الجامدة، وفي كلتا الحالتين يواجه القراء صدمة حضارية تغيب بهم أحيانا عن السياق المكاني باسم الحضارة، وتغيب بهم أحيانا أخرى عن السياق الزماني باسم الأصالة، وبذلك تنصرف قلوبهم عن الإقبال على النص الأدبي والسعي إليه

والابتهاج بالاستغراق في عالمه، وذلك هو الأساس الأول لكل درس أدبي يعنى بكسر الحواجز بين القارئ الجديد وواقع النص. فالنقد الأدبي العربي الآن هو جدل في المصطلح أكثر منه قراءة للنص.[11]

لقد دعى "عبد القادر القط – إذن – النقاد إلى تجاوز هذا الاغتراب الثقافي عن المكان، أي التبني المطلق للمصطلح الغربي في أسس النقد الأدبي وتصوراته الأولية، حيث غابوا عن الموقع الحضاري للأمة بمعالمه المكانية وسياقها الثقافي، وإلى تجاوز أزمة الاغتراب عن الزمان أي العصر، ويعني به الوقوف المتجمد عند قيم التراث الثقافي وأدواته المحدودة في الفهم والتحليل، كما وصلت إلينا عن السابقين دون تجديد.[12]

وأما شكري عياد فيرى أن " الناقد الذي يقدم مصطلحا جديدا بالنسبة للنقد العربي، وبالنسبة إلى لغة النقد المألوفة، عليه واجب هو أن يحدد المعنى الذي يقصده بهذا المصطلح. وليس فقط لأن المسألة جديدة، ولكن يصح أن يكون الناقد له رؤيته الخاصة لهذا المصطلح."[13]

هذا ويرى شكري عياد أن النقاد العرب يهملون تحيد مصطلحاتهم لسببين إثنين:

أولهما: هيمنة الروح الذاتية رغم ادعاء الموضوعية، " فأغلب النقاد يستمتعون بمخاطبة أنفسهم، وبأن يكون الناس الذين لم يسمعوا بهذه المذاهب كأنهم في معزل."[14]

السبب الثاني: النقل المغلوط للمصطلحات الغربية، " فكثير من العرب يخشون أن لا يكون فهمهم للمصطلح دقيقا أو صحيحا.وليس عندهم الشجاعة الكافية لكي يدركوا أن لكل ناقد ملء الحرية في أن يحدد مفهومه، وقلما يتفق ناقدان اتفاقا كاملا شاملا على مصطلح معين."[15]

وأما عبد الملك مرتاض فيدعو صراحة إلى ضرورة الاتفاق على المصطلح ، لأن كثيرا من المصطلحات المتداولة في الحقل النقدي العربي لا يفهمها القارئ العادي بل وحتى المتخصص في مجال النقد. يقول:" إن الكثير من المصطلحات لا يفهمها حتى الذين يروجون لها في كتاباتهم. إنني أتهم، لماذا؟ لأن هذه المصطلحات في الغرب نفسه، في فرنسا نفسها، تجد النقاد غير متفقين عليها، فكيف إذن يجيز أحدنا لنفسه أن يترجم باجتهاد هذا المصطلح أو ذاك، ثم يتعصب له ويروج له ويعممه في الكتابات العربية المعاصرة؟"[16]

إن عبد الملك مرتاض يحذر من خضوع الحركة النقدية العربية للآخر الغربي خضوعا تاما، حيث يدعو الناقد العربي إلى التمعن أولا في المصطلحات التي يروج لها ويستوعبها قبل أن يعممها في الكتابات العربية المعاصرة، فكل هذا سيفتح الطريق حتما أمام التبعية الثقافية. ولهذا نجده يدعو الناقد العربي ليقيم توازنا بين التراث والمعاصرة، بمعنى أن ينطلق من التراث العربي أساسا، ثم يستعين بالحداثة الغربية ليطعم بها النقد العربي.

الشيء نفسه نجده عند جبرا ابراهيم جبرا الذي يرى أنه لا مفر من الإقرار بأن حركة المصطلح متصلة أساسا بحركة النقد الغربي، أو قل في العالم كله أكثر من أي شيء آخر دون أدنى مواربة.[17]

كذلك أكد ابراهيم جبرا أن صدمة النقد أصابت النقاد والدارسين العرب بنوع من الذهول، لهذا نجدهم لا هم يستطيعون فهم حقيقة ما يجري في الساحة النقدية الغربية لكثرة الأساليب والطرائق النقدية، ولا هم يرضون بما تلقوه عن أساتذتهم من أساليب النقد وطرائقه.[18]

وأخيرا تذهب سلمى الجيوسي إلى أن النقاد العرب لم يستطيعوا فهم ما يفعلون، فهي ترى أن النقد الذي يكون مستغرقا في التقليد للغرب يكون غير مفيد. فهناك نقاد عرب يكتبون كلاما فرنسيا باللغة العربية، ويحاولون تطبيق قوانين لا يمكن أن تطبق على التجربة الأدبية العربية، وقد حدث هذا منذ مطلع القرن.[19]

والمصطلحات التي أفرزتها الحداثة الغربية تثير – كذلك – أزمة عند قراء الحداثة الغربية ذاتها، وتواجههم نفس الإشكاليات التي تواجه المتلقي العربي. " فإذا كان المصطلح بكل إشكالياته وتعقيداته، في المشروع النقدي العالمي اغتدى هاجسا لدى المشتغلين في هذا الحقل بحيث ينشأ عبر اللغات الأروبية فيحتدم أوار الخلف بينهم احتداما، فإن الشأن فيه يزداد استفحالا إذا انصرف إلى الثقافة النقدية العربية الحداثية خصوصا، إذ أضحى من الحتمي نقل العدد الجم من هذه المفاهيم السيميائية واللسانياتية، المعقدة غالبا، من تلك اللغات الأوربية إلى العربية، إلى هذي العربية التي ترى كل واحد من باحثيها

يشتغل وحده، مشرقا ومغربا، فتكثر الجهود ولكنها تهدر، وتبذل الطاقات ولكنها تجهض، وتقل أثناء ذلك الفائدة."[20]

نستنتج مما سبق أن واقع النقد العربي في وقتنا الحالي واقع متأزم ، وبالتالي كان من الضروري أن يسعى المتخصصون العرب في مجال النقد إلى تدبر فوضى المصطلح هذه، والتفكير في خلق مبادرات توحيد المصطلحات وتأطيرها ضمن معاجم موحدة.

مراجع البحث:

[1] – أحمد الجودة، من الإنشائية إلى الدراسة الأجناسية، قرطاج للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص168.

[2] – عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص63.

[3] – يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات، الجزائر،ط1، 2009، ص55.

[4] – رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة، الجزائر، 2000، ص71.

[5] – عبد النبي أصطيف، المصطلح الأدبي في الثقافة العربية الحديثة مشكلات الدلالة ومواجهتها، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد 75،ج1، ص188.

[6] – ينظر، أحمد بوحسن، مدخل إلى علم المصطلح ونقد النقد العربي الحديث، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت ، ع61-62، 1989،ص 24.

[7] – جهاد فاضل، أسئلة النقد حوارات مع النقاد العرب، الدار العربية للكتاب، ص7-8.

[8] – الشيخ بوقربة، المفاهيم الأدبية في النقد العربي الحديث، مجلة علامات، جدة، مجلد10، ج40،ص321.

[9] – ينظر، جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص8-9.

[10] – علي خذري، هموم الناقد العربي المعاصر في المصطلح والمنهج والمثاقفة، مجلة العلوم الاجتماعية الإنسانية، جامعة باتنة، ع9، 2004،ص141-142.

[11] – ينظر، عفت الشرقاوي، عبد القادر القط..ونقد النقد في الجامعة، ضمن كتاب هؤلاء علمونا الكتاب التذكاري الأول، دار الحريري للطباعة، 2003، ص 255.

[12] – ينظر، نفسه، ص 256.

[13] – جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص168.

[14] – نفسه ، ص168.

[15] – نفسه ، ص 169.

[16] – نفسه، ص220.

[17] – ينظر، علي خذري، هموم الناقد العربي المعاصر، ص144.

[18] – ينظر، جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص76.

[19] – ينظر، نفسه، ص166.

[20] – يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص 54.